تمهيد

الخطابة ضرب من الكلام يراد به التأثير في الجمهور من طريق السمع والبصر معاً . وهي فطرية في الانسان كالغناء والنطق ولهذا تجد آثارها عند الاقدمين في كتب الهند المقدسة وكتب مصر وفارس والصين . ولا ريب ان الاعمال العظيمة التي خطت على جبين الدهر من بطولة وكرم ومجد كان الدافع اليها خطب الافراد الذين امتازوا بسرعة الخاطر وقوة العارضة وجرأة الفكرة وذلاقة اللسان . فمن ابطال اوميروس الى الاسكندر وقيصر ، الى بطرس الناسك وتوما الاكويني ، الى لوثر وكلفن الى ميرابو ودانتون وروبسبير ، الى دزرئيلي وغلادستون وتيارس وغامبتا ، الى جوريس بالامس وموسوليني اليوم لا تزال البلاغة أداة الاقناع والعامل الأكبر في انهاض الهمم وتنبيه العزائم وإذكاء الشعور بها آثار سولون حماسة الاثينيين فخاضوا غمرات الموت لاسترجاع «سلامين» ، وبها كان شيشرون يقود الشعب الروماني المعلق بشفتيه من دار القضاء الى السوق ومن السوق الى دار القضاء

وبها اسكت ابو بكر أهل المدينة واخمد هياجهم بعد موت النبي وبها اندلعت نيران الثورة الفرنسية فغيرت شكل الاجتماع ولولاها لما سحرت الاديان عقول البشر ولا كان لها ابطال و شهداء في بدو ولا حضر

والذي يتبادر الى الذهن ان قوة كهذه لابد ان تكون قد اشغلت

القرائح والعقول وكانت موضوع الدرس العميق والبحث المستطيل . على أن الواقع بخلاف ذلك ومن بواعث العجب والأسف قلة الكتب التي خصت بها وندورة المحفوظ منها بين ايدينا ولا سيما عند العرب وهم كما نعلم من أخطب الامم

ولم تبلغ حاجة الانسان الى التكلم في الاندية والجماهير مبلغها اليوم فان الرقي يسير بالانسان نحو التوسع في الاشتراك بالحكم وقد اصبحت المعاملات الاجتماعية اكثر تشعباً وتداخل بعضها في بعض تداخلا لم يسبق به عهد واتسع نطاق التعليم وانتشرت أنوار الثقافة مما جعل كل طبقة من الناس على كثب دائم من المؤثرات الخطابية

وكثير من الناس لم تؤهلهم المدارس الى تعلم الخطابة أو التمرن عليها وهم مع ذلك في افتقار شديد الى هذا السلاح لتعدد الفرص الداعية الى حمله من محفلات سياسية او عمرانية او غير ذلك

فضلا عن هذا فان المحاماة التي هي من أعظم المهن وأوسعها خدمة للمجتمع تتطلب البلاغة قبل كل شيء وليس في برنامج الدروس التي يتلقاها طلبة الحقوق ما يختص بتعليم الخطابة فاذا لم يتسن للطالب أن يستوفي حظه من هذا القبيل فانه يختم دروسه ويحمل شهادته وهو لا يزال فقير المادة في الكلام قصير الحجة في الجدل لا يستطيع مع كل ما درس ووعى أن يجاري زملاءه القادرين في الدفاع عن الارملة واليتيم والمظلوم ولا أن يسمع في ندوة القضاء كما يقول هنري روبير « صوت الرحمة البشرية والعدل الانساني »

ثم ان الحكم الدستوري الذي تتمشى نحوه كل الامم يحتاج الى سلاح البلاغة والناخب يؤثر المتكلم الفصيح على سواه ولهذا تجد

كثيراً من المحامين على مقاعد النيابة في كل البلدان . وليس الوزير ان حققت سوى محام يدافع أمام المجلس عن واجباته وعن معاونيه وشركائه في المسؤولية . ما الفائدة من انتخاب مزارع مثلا لوزارة الزراعة أو جندي للحربية أو تاجر للاشغال ؟ حسب الوزير أن يأخذ من كل علم بطرف على شرط أن يكون فصيح اللسان عذب البيان

ليست الحاجة الى البلاغة مقصورة في الحياة السياسية على الحكم الدستوري بل تمتد الى الدكتاتورية وربما كانت الواسطة الاولى التي تمهد لصاحبها طريق الرآسة فان موسوليني أو مصطفى كمال أو لينين لم يستطع الانتصار على الحكم السابق الا بالكلام أولا

وعلى الجملة فان فوائد الخطابة أكثر من أن تحصى وهي تعم الكاتب والتاجر والسياسي والقائد والعالم والمربي وكل من كتب له أن ينزل الى ميدان الحياة ويدخل معترك الاجتماع

ذلك ما حدا بي الى تاليف هذا الكتاب واضعا فيه كل ما وقفت عليه في كتب القوم على ندورتها أو عرفته بالاختبار ولا أدعى به القدرة على أن أخلق دموستيناً أو شيشرونا غير إني واثق انه يساعد القارىء على تحقيق رغبته في أن يكون يوماً من أبطال المنابر

وقد أردت به على الخصوص خدمة المدارس على انه لا يخلو من اللذة والفائدة للمحامي والخطيب . والله من وراء كل عليم